سفر المقتبس وميزان النقد التاريخي

د. طارق ورّاد العلويّ

جامعة تلمسان ــ الجزائر

إن هذه المقالة دراسة للإستريوغرافية الأندلسية خلال القرن الحادي عشر الميلادي، إحدى أهم مراحل تلك الإستريوغرافية، والتي تتجسد في أشهر وأكثر تاريخييها تأليفا المؤرخ أبو مروان بن حيان القرطبي. معتمدة على تحليل منهجه النقدي للتاريخ والرجال والجماعات والحوادث التاريخية؛ مع إدراك أصول هذه المنهجية، بالاعتماد على تأليفه الضخم كتاب المقتبس.

Résume

L'objet de Cet article est l'étude historiographique andalouse durant le XI.siècle considéré comme l'un des moments les plus important de l'historiographie, elle fut connue par le vieux et illustre historien Abou Marwan Ibn Hayyan de Cordoue.nous nous appuyés sur son œuvre « El-muqtabas En analysant sa méthodologie de la critique de l'histoire, des hommes, des groupes et des faits historique; et les fondements de cette méthodologie. »

مقدمة : لم يكن النقد التاريخي مما احتفل به التاريخيون الإسلاميون في مؤلفاتهم، إلا أننا نلمح عند بعضهم شيئا من هذا النهج الفكري، وكثيرا ما يكون له عند صاحبه أصولا وضوابطا وضعها لنفسه، أو استمدها من فنون أخر غير التاريخ. وسنأخد كأنموذج لكبار التاريخيين أبو مروان بن حيان القرطبي صاحب كتاب المقتبس السفر الضخم المؤلف في تاريخ الأندلسيين؛ فهو لم يهتبل كثيرا في كتابه بموضوع النقد التاريخي إذا ما عارضنا ذلك بالتحقيق التاريخي؛ وذلك في طبيعة المؤلَّف أمر مفهوم، فكتاب المقتبس مجموع قائم على مقتبسات التاريخيين الأندلسيين، التي تضمنت في ثناياها جوانبا ــ وإن قلت ـ من النقد التاريخي والأدبي لكتابها، نزع أبو مروان إلى إيرادها بشيئ من المغايرة في اللفظ وبعض زيادات المعاني. فقلة تدخلاته النثرية الخالصة في هذا المؤلف توافقت وقلة هذه النقود المذكورة المنسوبة إليه؛ لكننا مع ذلك نلحظ في كل ما كان من كلام تاريخي أو أدبي حياني محض جانبا كبيرا من المادة الفكرية الحيانية المبينة لملكة قوية في باب النقد.

1- أصول النقد التاريخي عند ابن حيان:

حوى المقتبس مادة تاريخية نقدية لا بأس بها، أظهرت من ابن حيان حسا نقديا مميزا، قد عري منه الكثير من التاريخيين الأندلسيين وغيرهم، وقد وجدناه في بعض المواضع يجنح إلى أنواع من التأصيل المنهجي النقدي الذي أظهر فيه تميزا وإنفرادا عن أقرانه، وقد ظهر اعتناؤه بالنقد التاريخي في مستويين هامين: مستوى نقد الرجال والجماعات، ومستوى نقد الأحداث، لكن أكثر شخصيته التاريخية الناقدة برزت في مستوى ثالث نظري تمثل في أوجه نقد الرواية التاريخية والتي بها نعرف أصوله في نقد التي بنا عليها منهجه التاريخي العام.

أ- أوجه النقد للرواية التاريخية:

يظهر هذا الجانب التأصيلي عند ابن حيان من خلال نقده للرواية التاريخية إسنادا ومتنا، وكان ميله لنقد الإسناد أظهر منه في نقد المتون على طريقة المحدثين، مما يعرف عندهم بعلم الجرح والتعديل، وإن لم ينظر إليه نظرتهم شديدة التحقيق، إلا أنه في العموم قد سار على منوالهم؛ فرجال التاريخ عنده طبقات غير متساوية الرتبة والحال، بعضها حقه التقديم في الرواية الخبرية، وبعضها الآخر حقه التأخير، كما أن بعضها حقه التضعيف، وبعضها الآخر حقه التوثيق. لأجل هذا يمكننا أن نميز عند ابن حيان عدة مستويات في نقد رجال الرواية التاريخية وهي: مستوى نقد التوثيق، ومستوى نقد الترجيح، ومستوى نقد التجريح.

أما مستوى **نقد التوثيق**؛ فقد اعتنى به ابن حيان فيما أورده من مروياته الخاصة، ومرويات أصحاب مقتبساته. أما توثيقاته الخاصة فوجدناه يجنح فيها إلى ثلاثة أوجه من الصياغة، فإما أن يوثق صاحب الرواية توثيقا ضمنيا لا تصريح فيه، كما في أخباره عن سطوات عبد الرحمن الناصر التي أوردها بصيغة الجزم عن رواتها الذين قدم لهم بقوله: "ما سمعته من المشيخة الدانية بفتنهم من تلك الدولة...ما حملوه عن خواص من أكابر خدمة الخصيان ساكني داره ومشاهدي غيبه"[1]، وقوله:"ولحقت مشايخ من الناس خبروا.." [2]، فهو يوثق هنا الرواة والرواية باتفاق الجمع من المشايخ أو الخصيان على روايتها المتميزين بالقرب من صاحب الحدث أو المعاينين له، والمنتمين في الولاء إليه ممن يبعد في العادة قدحهم فيه افتراء.

كما قد يوثق راوي الخبر بنص غير صريح فيه، إما وصفا له أو حكما عليه في غير صفة الرواية، مما يشعر بثقته عنده، كقوله في رواية صاعد الطليطلي مما اقتبسه عنه:" وكان من العلم بمكان"[3]؛ فهذا مشعر بثقته عنده فيما رواه أو أخبر به، إلا أنه غير صريح في الدلالة على ذلك، ونفس هذا المنهج نجده عند أحمد الرازي في قوله في أحد رواته:" أخبرني شيخ جميل المذهب من أهل طليطلة"[4].

كما قد يوثق راوي الخبر باللفظ الصريح كقوله في إحدى رواياته:" أخبرني يحي بن محمد بن نعمان العطار عن أبيه، وكان ثقة"[5]، وهذا المنهج في التوثيق الصريح نجده ماثلا عند جمهرة التاريخيين الأندلسيين، ذوي النزعة التاريخية والأدبية على حدّ سواء، وإن كان قد تميز من بينهم فيه كل من أحمد الرازي[6]، والقبشي[7].

أما مستوى **نقد الترجيح**؛ فهو نقد لرجال الراوية الإخبارية من خلال ترجيح بعضهم على بعض، وأوضح مثال على ذلك عنده قوله في معارضة رواية ابن القوطية والقبشي من جهة، ورواية الشبينسي من جهة أخرى في مشاركة الوزير يوسف بن سبيل وصول الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى إمارة الأندلس:" ومعاوية (يعني الشبينسي) أثبت معرفة بـأخبار قومه"[8]، فهو هنا رجح رواية الشبينسي على راوية معارضيه فيما إختص بأخبار المروانية بالأندلس، على أن هذا الترجيح نسبي عنده إنما يختص بأخبار المروانية فقط، وعلل ابن حيان ذلك بقوله أنه أعلم بأحوال آل بيته، وهذا مما لا يخالفه فيه أحد؛ فالشبينسي باعتباره مروانيا ومن أبناء أمراء المروانية قد جالس رجال هذا البيت وخالطهم وعرف أحوالهم، واطلع على ما لم يطلع عليه غيره من خفاياهم، كل ذلك جعله أثبت التاريخيين الأندلسيين فيما ينقله فيهم، فأما إذا عرض إلى غير أحوال البيت المرواني طلب ابن حيان غيره، كما فعل في أخبار العلماء والشعراء قدم عليه ابن الفرضي وغيره لثقته بهم في هذا الباب.

و من الجدير أن يلاحظ هنا أن ابن حيان قد استعمل في منهج الترجيح مصطلح "أثبت"، ومعلوم شائع أن هذا المصطلح من خصوصيات علم الجرح والتعديل عند المحدثين؛ وكـأنما اقتبس هذا منهم ووظفه في الرواية الإخبارية التاريخية مؤصلا بذلك لفن مصطلح التأريخ بالأندلس، على الرغم من أنه قد سُبق في مصطلحات أخرى أوردها التاريخيون الأندلسيون.

أما مستوى **نقد التجريح**، فهو نقد لرجال الرواية الخبرية التاريخية من حيث ضعفهم الكلي أو الجزئي، ومن حيث قبول رواياتهم كليا أو جزئيا، أي التضعيف المطلق أو الجزئي للرواية.

فمن الوجه الثاني ونعني به التضعيف الجزئي، قوله في خبر للشُبينسي: "وقد زعم معاوية بن هشام الشبيسني نسابة القوم وابن عمهم بأن القاسم بن محمد (يعني ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن) كان كثير الشعر، يكاتب بالأبيات محمد بن عبد العزيز الشاعر المحسن في وقته"[9]؛ فإن لفظ "زعم" مشعر أن ابن حيان قد ضعف هذا الحكم النقدي من الشبينسي، ولم يرتضيه منه؛ وسببه أن ابن حيان لم يكن يرتضي الأحكام النقدية على الأشعار التي يوردها الشبينسي[10]، على الرغم من ثقته به فيما أورده من أخبار البيت المرواني، وهذا تضعيف له في بعض جوانب الرواية والتحقيق.

وأما الوجه الأول؛ وهو الأصيل في هذا الباب، فأوضح أمثلته التضعيف المطلق والمزدوج الذي وصم به أبو مروان مصدره عبادة الشاعر، فقد قال فيه في إحدى رواياته مما تعلق بأخبار البيت المرواني:" ومن دواهي أصحاب الخبر القاذفين بالغيب، المقتحمين على الريب، ما أصبته لأبي بكر عبادة بن عبد الله الخزرجي الشاعر، وبخطه في غض هذا الأمير الجزل محمد بن عبد الرحمن يعزوه إلى الكثير من ثقات دولته، على أنه هو وسلفه لم يزالوا أظناء في بني مروان ناكبين عنهم، قد جاهروا لهم بالخلاف عليهم، فما إن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايبهم، والتنبث عن مساويهم، وذلك أنه ذكر..." [11] وذكر خبر كلف الأمير بالزمر والزامرين.

إن هذا النص يظهر لنا بجلاء ركائز النقد التاريخي للرجال ورواياتهم الإخبارية عند أبي مروان، وقد حمل من الفوائد حول المنهج التاريخي الحياني ما لم تحمله المسودات من مقتبساته.

لقد حمل هذا النص نقدين أحدهما في رجال الرواية التاريخية أو ما نسميهم بالإخبارين ويسميهم هو "أصحاب الخبر"، والثاني في عبادة الشاعر وآل بيته من الإخباريين، ومجموع النقدين ينحو إلى نقد الشاعر التاريخي عبادة نفسه، وتجريحه في جانب من روايته الإخبارية. وبمعنى أوضح إن ابن حيان قد استخدم هنا ترتيبا منطقيا في نقد مُنَهج قدم له بثمانية مقدمات بعضها كلي وبعضها جزئي، وصولا إلى نتيجة جزئية هي الطعن المباشر في رواية عبادة، وتندرج معها نتيجة كلية هي الطعن أو التجريح لرواية الإخباريين المتعلقة بمخالفيهم أو منابذيهم.

و لاستجلاء هذا الترتيب المنطقي قمنا بدراسة وتحليل هذا، وتوصلنا إلى أنه يشتمل على أربع مقدمات كلية هي:

1- قوله "ومن دواهي" مقدمة كلية تفيد أن للإخباريين دواهي من الروايات.

2- قوله "أصحاب الخبر"، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين مهتبلين بعلم الرواية دون علم الدراية.

3- قوله "القاذفين بالغيب"، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين يكثرون الخوض فيما لا يعلمون أو يتحققون منه.

4- قوله: "المقتحمين على الريب"، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين لا يتحرجون من اقتحام ما فيه ريبة وشك من الأخبار.

كما اشتمل على أربع مقدمات جزئية هي:

1- قوله "يعزوه إلى كثير من ثقات دولته"، مقدمة جزئية تفيد الطعن في مستند رواية عبادة على سبيل التهكم.

2- قوله: "على أنه هو وسلفه أظناء في بني مروان"، مقدمة جزئية تفيد إثبات العداوة بين آل عبادة وآل مروان.

3- قوله: "ناكبين عنهم"، مقدمة جزئية تفيد إثبات بعد ما بين آل عبادة وآل مروان، وانحرافهم عنهم.

4- قوله: "قد جاهروا لهم بالخلاف عليهم"، مقدمة جزئية تفيد إثبات المنابذة العلنية بين آل عبادة وآل مروان.

فكانت النتيجة من هذه المقدمات الكلية والجزئية نتيجتين، إحداهما كلية غير منصوص عليها لفظا، وأخرى جزئية منصوص عليها لفظا:

فالثانية قوله:" فما أن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايبهم، والتنبث عن مساويهم"، ويفيد معنى هذه النتيجة الجزئية عدم القبول والطعن في رواية عبادة الشاعر وآل بيته في المروانية، مما يفيد تنقيصا لهم أو ازدراء لحقهم.

وأما الأولى غير المنصوص عليها؛ فمفهومة من لفظ النتيجة الجزئية السابقة على سبيل مفهوم الموافقة من باب أن إثبات الحكم للجزء لزم اثباته للكل، وهي أنه لا تقبل رواية الإخباري في عدوه أو مخالفه، إذا ما ظهر منها تنقيصا أو ازدراء أو ما أشبهه، مع مخالفة العادة والمعلوم عنه، أو انعدام رواية أخرى موافقة لها.

إن الناظر في هذه المقدمات المنطقية ونتائجها التي خرج بها ابن حيان مما لا يخالفه فيها أحد، بل هي دون شك إحدى الركائز القديمة التي ارتكز عليها علم الحديث عند أهله، فهي من حيث المقدمة والنتيجة صحيحة المبدأ النظري، لكن من حيث التطبيق على الرواية الإخبارية التي أوردها ابن حيان عن عبادة لم تكن بتلك الموفقة، ذلك أن أصل الخبر الذي وردت فيه وهو كلف الأمير بالزمر والزمارين محتمل الصدق جدا، إذ شهد له خبر آخر أورده ابن حيان نفسه في المقتبس هذا، وهو خبر الوزير هاشم بن عبد العزيز وشرحبيل الزامر صنيعة الأمير محمد، والذي رواه عن القبشي، وفيه في وصف شرحبيل قال: "وكان أثيرا لديه ممن يلهيه، وكان يرجع إليه إلى خصال محمودة"[12]، وسياق هذا الخبر وموضوعه يدلان دلالة واضحة على حظوة هذا الزامر وقربه من الأمير محمد، وهذا مما يعضد أصل رواية عبادة التي طعن فيها ابن حيان دون صواب فيما يبدو.

على أن ابن حيان لم يلتزم دائما منهجه النقدي هذا في كل روايات عبادة الشاعر؛ ففي رواية خبر الشريف دحون المرواني أنه منعه الأمير عبد الرحمن بن الحكم منعه من نشر العلم في المسجد الجامع بقرطبة قائلا له:" إنك جد كسر من قريش ومنا بحيث تعلمه، ولا يصلح هذا الأمر بك فدعه"[13]. فهذا الخبر أولى بالشك من الخبر الأول لعبادة، فالرواية عارية الإسناد كما أنه ورد ما يخالفها من خبر القاضي إبراهيم بن العباس المرواني الذي كان يجلس للقضاء بين الناس في بيته، وإن جاريته لتنسج في كسر البيت[14]، وذلك في زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

كما نجده يغفل نفس هذا المنهج النقدي في كتابه المتين في ترجمة الفقيه ابن حزم، حيث أورد فيه طعنا له في اختلاقه نسبه الفارسي من بعض من لم يسمه[15]، ومعلوم أن ابن حزم لمذهبه وشدته في الحق قد جمع من خصومات الرجال ما لم يجمعه أحد قبله في بلده، فكان الأحرى بابن حيان أن

يطرد منهجه هذا فيما قيل فيه ولكننا وجدناه يتنكب تلك المحجة الصائبة، والله أعلم بغرضه من وراء ذلك(؟).

وعلى كل حال، فإن الوضع النظري الذي وضعه ابن حيان، وعلى الصيغة التي قدمها يدلان على تمكن منهجي نقدي متين وأصولي، والحقيقة أن ابن حيان لم يكن الوحيد في مضمار النقد والتاصيل النقدي للروايات الإخبارية ورجالاتها، فقد رافقه على هذا الدرب جماعة من معاصريه أمثال ابن حزم[16] وابن عبد البر[17]، ممن شغل بالكتابة النظرية والتطبيقية لهذا الضرب من فنون التأريخ، كما سبقه أحمد الرازي والقبشي والخشني وغيرهم؛ فالمدرسة التاريخية الأندلسية قد عرفت صيغ التوثيق والتجريح مبكرة، وإن كانت لم تضع لها اصطلاحا ثابتا، أو أنها لم تر في ذلك حاجة باعتبار وجود اصطلاحات المحدثين، التي كانت تغني عن إحداث اصطلاحات أخرى لعلم التأريخ.

ب- **نقد الرجال والجماعات**: وهو نقد ذي صبغة تاريخية ينحو به ابن حيان نحو إصدار الأحكام الخلقية من مدح وذم وتخطئة وتصويب لأعمال الأفراد والجماعات، على اختلاف طبائعها، ومستوياتها الاجتماعية أو العلمية.

وقد برز القلم الحياني بشكل ملحوظ وموفق أحيانا في هذا المضمار، ويمكن لحظه على مستويين هامين: مستوى نقد الرجال، ومستوى نقد الجماعات.

أ- **نقد الرجال**: لم يتخلف ابن حيان عن منهجه الصارم في إصدار رأيه على الرجال مما انتحاه في مؤلفاته، فنجده في مقتبسه يميل إلى ذلك الضرب من التأريخ الذي تنكفه الكثير من الأندلسيين؛ فهو على بعد الشقة بينه وبين رجال تاريخه المقتبس إلا انه لم يتأثم من إصدار الأحكام الخلقية عليهم بطريقتين مختلفيتين هما:

1- تضمين الأخبار المقتبسة ما يذكر بعض معايبهم، فيكون حكما عليهم على وجه التضمين.

2- الحكم المباشر على أشخاصهم بذكر معايبهم صراحة دون تجميل لأحوالهم مهما عظموا في أعينه أو أعين غيره.

ونجد هذا الوجه الثاني بصورة ملحوظة في الأحكام على أحوال الأمراء المروانية؛ فهو يخصص لبعضهم بابا للذم[18] كالنقد لهم، جمع فيه ما وجده من أخبار تنعى عليهم بعض صفاتهم الخلقية الذميمة. وهو أحيانا إذا لم يجد للأمير ممن سبقه ذكرا لمعايبه بحث له في رواياته الخاصة ما أغفله غيره في ذلك، إيثارا للنصفة في الحكم على الرجال دون تمييز بينهم؛ وقد فعل ذلك في أخبار الأمير عبد الرحمن الناصر حيث أردف فيه اقتباسا عن ابن حزم في عيبه عام اللفظ، برواياته المحققة في أخبار بطشاته أو كما سماها "فظيع سطواته" بنساء[19] قصره، أو ما أرهب به الناس من "فظيع المخاوف..وذلك من أفعال الجبابرة الملوك بالمشرق، ذهب إلى اقتفاء أثرهم فيها"[20] كما قال.

و نجده أحيانا مصرحا بالذم كما في قوله:" وصفى الملك بالأندلس للأمير الحكم، واشتد سلطانه فعتا وتجبر واعتسف رعيته"[21].

وهو لا يخلي كتابه أحيانا من انتقاد بعض سياسات الملوك الخاطئة، انتقادا لهم في أصل أعمالهم، ومن ذلك انتقاده للخليفة الحكم المستنصر من تدبير لحوق بربر العدوة إليه بعدما كان معتقدا قلاهم والإزورار عنهم على مذهب أبيه، إذ كانوا بعدها كما قال الساعين في "إبطال الخلافة، وتفريق الجماعة، والتمهيد للفتنة، والإشراف بالجزيرة على الهلكة"[22]، كل ذلك في تضمين خفي، وأصرح منه نقده للحكم أيضا في سوء السياسة في توريث الملك لإبنه الصغير مع وفور رجالات ومشيخة المروانية، قال: " ونظم رواة الأخبار وحملة الآثار من مناقبه ما طار كل مطار في جميع الأقطار، إلا أنه تغمد الله خطاياه مع ما وصف من رجاحته، كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا، دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته، وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله، فأتاها مختارا ولا مرد لأمر الله"[23].

كما نجده كثير الانتقادات على رجال الدولة أيضا فيما اقتبسه من المادة التاريخية عن غيره، ومن ذلك المقابلة النقدية البارعة التي اقتبسها عن أحمد الرازي بين الوزير هاشم بن عبد العزيز وعمه النكود خالد بن هاشم فيما كان لهما من محامد ومذام، ومن ذلك قوله في خالد:" وكان في ذاته

أديبا فهما نبيلا، وفي طباعه شديد الكبر، عظيم البأو، لا يرى لنفسه كفوا"[24]، وأمثلة هذه النقود كثيرة ومتنوعة.

كما نجده في انتقاد المخالفين للأمراء والدولة المروانية أشد غلظة وحدة، وصراحة في اللفظ، وتكثيرا للمعايب بأعنف عبارة، وأوضح إشارة؛ فمن ذلك قوله في جعفر بن عمر بن حفصون المتغلب على ببشتر اقتباسا عن أحمد الرازي:" فكان جعفر، قبحه الله، في ذاته متهورا، سخيفا، جبانا، ضعيفا، لئيما، ذميما، حسودا، حقودا، نقودا، منافسا لمن تجمل عنده، كنودا لمن استرسل إليه، مؤالفا للسفال، مستصحبا للأراذل، لم تسم به همته إلى مروة، ولا انطوت له نية على جميل"[25]، وهو في هذا يقتبس المعنى المقصود، ويزيد عليه من عنده فيما يبدو المعاني اللاذعة في الذم والنقيصة بأقبح الأوصاف وأصرحها، مما يوحي لنا بغضه الشديد لهؤلاء النفر المفرقين والقاطعين لحبل الجماعة حتى ذهب بعض الباحثين إلى وصفه بالخروج عن الموضوعية في نعوتة التي نعت بها بعض خصوم الأموية[26].

على أننا لم نجد له في نقد العلماء كبير شيء نقابله الطفرة الهائلة منه في نقده لعلماء عصره في كتاب المتين، والأمر طبيعي ومفهوم، فالرجل لم يعايش من سبقوه، ولم يعرفهم حق المعرفة ليلقي عليهم سيف قلمه الناقد اللاذع.

ب- نقد الجماعات: وهو نقد يأتي في الغالب في خضم نقد بعض الأفراد الذين تندرج تحتهم جماعات، كما يأتي في نقد بعض الفئات الاجتماعية التي نظر إليها ابن حيان نظرة خاصة.

فنجده مثلا في قضايا البربر منحرفا لإيراد الكثير من المقتبسات في غمزهم، واحتقارهم، والحكم عليهم بالأحكام الشديدة، ومنه اقتباسه عن ابن مسعود قوله:" وأنس (يعني عبد الرحمن الناصر) ببيعة سبتة من جهال البرابر أشباه نعام الدوّ وأساد الغيل، استلانوا عما قليل غرائز أهل الأندلس، وحسدوهم ما ألفوهم عليه من حسن الحال، فلم يلبثوا أن توثبوا عليهم آخر أمر الدولة بيد المقدار وثبة تركتهم أوزاعا، وسلبتهم العز والسلطان، وأركستهم في غياهب الافتنان الذي انسكبوا في عمايته، فطارت عصاهم شققا إلى آخر الزمان"[27].

وإذا تدبرنا هذا الاقتباس وجدناه من صميم كلام ابن حيان، ذلك أن ابن مسعود لم يلحق زمن الفتنة، فظهر بذلك أن هذا النقد اللاذع للبربر العدويين هو من نفثات أبي مروان التي تكررت منه في مواضع عدة.

إننا لم نجد ابن حيان أكثر نقدا لجماعة كما وجدناه في نقده للبربر العدويين، ونجد هذا تقليدا قديما سارت عليه أهل الأندلس وبخاصة كتابها، حتى أنه تابعهم عليها بعض من ينسب إلى البربر[28]، وقد عد بعض الباحثين هذه النزعة الحيانية نوعا من الكراهية[29]، وقيل الاحتقار[30]، وقيل الازدراء الشديد[31]، وقيل "بربروفوبيا"[32] واضحة المعالم.

لكننا نجد ابن حيان شديد الانتقاد أيضا لجماعات أخرى من المجتمع الأندلسي وغيره، وإن بحدة أقل، كنقده للعامة من أهل قرطبة وغيرها، وهو في ذلك ينقل فيها أشد أوصاف الاحتقار والأزدراء من مقتبساته، ولعله أسهم فيها بقلمه كما أسهم في غيرها، ومن ذلك الوصف الشنيع والنقد اللاذع الذي وسم به الثوار الربضيين من أهل قرطبة في ثورتهم على الحكم دون انصاف اقتباسا عن التاريخي أحمد بن محمد بن خلف الوراق، وهو قوله:" كان أكثر أهل الربض الكبر... سواما طغاما جهالا أجلافا، أولى استحفاف بالسلطان، وجرأة عليه، وتحصيل لأخباره وطعنان في سيرته، لا يشكرون له نعمة، ولا يغمضون له عن عورة، ولا يعتقدون له هيبة"[33]، وقد سود ابن حيان في مثل هذا أشياء كثيرة في تنقص العامة ونقدها بأقبح الأوصاف.

ومثل ذلك وجدناه نقالا لما انتقدت به العبيدية العدوية من روايات وأخبار على ألسنة أصحابها من الخلفاء والأمراء وصفا لمثالبها، وكأنما يتابع أصحابها فيما وصفوه، ويناغيهم فيما اعتزموه، ومن ذلك الكتاب اللاذع في الطعن في المشارقة كما وصفوا به في ذلك الزمان لموسى بن أبي العافية صاحب الدعوة الأموية بالغرب الذي جاء فيه:" ولقد أخبرني رجل من حجاج غربنا أنه مشى في المهدية يوما، حتى أقبل ابن أحمد الوزير(يعني وزير العبيدية)، ورجل يقرأ علانية " أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" فقال له ابن أحمد علانية: فقد تدبرناه يا كشخان، فوجدنا فيه اختلافا كثيرا"[34]، وقد أورد في مثل هذا روايات كثيرة من رسائل الأمراء العدويين والأموية.

كما وجدناه ينحو إلى الانتقاد الفردي الذي يراد به الجماعة، ومن ذلك النقد المشبع الذي جمعه في خبر المتكلم الجدلي محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي، سود فيه عشر صفحات في خبره وخبر مذهبه، حملت ألفاظا لاذعة، وأحكاما مبقعة، كقوله نقلا عن غيره وربما كان من زياداته اللفظية:" الظنين المرتاب"، "المرائي بالعبادة"، "المنطوي على دخل السريرة"، "توارى في شعب الزهاد، وتذرع بها إلى القدح في السنة"، "كان يستهوي العقول ويصيد الأفئدة"[35]... ويظهر ابن حيان هنا كالمدافع عن معتقد السنة والجماعة، على أن نقده لم يأت فيه من بيان معتقد ابن مسرة ما يشفي الغليل، وقصارى ما أورده عنه وصفه له بانتحال مذهب المعتزلة، وبعض منازعهم في الاعتقاد، مما يرشد ربما إلى قلة غوصه في هذه المعاني، لكنه دون شك رمى من وراء الطعن في هذا الرجل ونقده مساس مذهبه برمته، ذلك أن هذا المذهب كان لا يزال قائما في بعض نواحي الأندلس زمن أبي مروان[36].

وجملة القول أن ابن حيان قد أظهر من خلال نقوده التاريخية فكرا ذا نفس قوية، ميالة لانتقاد الرجال، وإصدار الأحكام العلمية والأخلاقية عليهم فيما انتحلوه من المذاهب المعرفية، ونزعوا إليه من الأعمال السياسية، على أن نقوده هذه لا تقوّم من حيث صحة الحكم أو خطئه إلا تقويم مذاهب أهل الاجتهاد، ولا يحمّل فيها صاحبها إلا ما حمّل فيه غيره فيما اجتهد فيه أخطأ أو أصاب.

ج- نقد الأحداث (الأخبار): لم يهتبل ابن حيان بنقد الأحداث والأخبار القدر الذي نزع فيه إلى تحقيقها، إذ إكتفى في الأغلب بإيرادها بروايتها المختلفة محققا لأصولها دون كبير تدخل في انتقادها إلا في القليل النادر، على أن هذه النقود للحوادث والأخبار قد وردت منه في مواضع مخصوصة هي:

1. نقود للحوادث والأخبار الطاعنة في الأموية: وقد سبق أن ذكرنا خبر الأمير محمد بن عبد الرحمن في كلفه بالزمر والزمارين الذي أورده ابن حيان من رواية عبادة الشاعر، وطعن فيه بما فيه من التحامل على البيت المرواني من أصحاب الخبر المنتسبين لبيت آل عبادة؛ فوجدناه هنا دابا عن مواليه فيما تنقصوا به، وقد وجدنا نفس هذا **الاتجاه المولوي** في النقد عند صاحب الأخبار المجموعة حيث يقول في تعليل خبر ثورة بربر المغرب على الدولة الأموية المشرقية، "وقد يقول من يطعن على

الأئمة أنهم خرجوا ضيقا من سير عمالهم، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية، فتذبح مائة شاة فربما لم يوجد فيها جلد واحد، وهو قول أهل البغض للائمة"[37]، ووجدنا هذه النزعة المولوية مستشرية عند الكثير من التاريخيين، وهي نزعة رديئة في التاريخ صاحَبها البعد عن الموضوعية، وقلة النصفة، والإغراق في العصبية النسبية أو الفكرية أو الدينية.

2- نقود لحوادث الفتن والعصبيات والساسيات: وهي انتقادات للوضع السياسي المؤرخ أو على خصوص سياسات الأمراء والخلفاء الأندلسيين؛ فمن ذلك انتقاد بشاعة عمل الحكم الربضي فيمن قام بالمؤامرة عليه من وجوه قرطبة سنة 189 هـ (804 م) فيما عرف بالهيج، حيث قال أبو مروان في نقده:" وبطش بهم بطش الجبارين، وجمع لهم ما بين سفك الدماء، وفظاعة التمثيل، فكوى بهم قلوب أهل مصرهم أجمعين"[38]، وظاهر من لفظه استشناعه لهذا العمل الذي كوى قلوب القرطبيين، ولعله يلمح بذلك إلى أنه كان من أسباب القومة الكبرى لأهل الربض التي انجلت على هدمه ونفي أهله.

ونجد هذا الضرب من الانتقادات للأمراء يتكرر كثيرا في مؤلفات ابن حيان، كما في خبر جلب "الخليفة" الحكم المستنصر لبربر العدوة[39]، وخبر اجتلاب المظفر بن أبي عامر لبربر صنهاجة[40]، فابن حيان في هذا الباب يعمل فكره كمنظر سياسي خبر الأمور وعرف إلى ما تنزع إليه من فساد الأحوال، على أننا لحظناه في الباب نفسه غير صريح النقد ولا شديد اللوم، بل يأخذ فيه مأخذا وسطا بعيد عن الامتعاض، قريب من اللوم، على أنه لم يسلم من المخالفة من التاريخيين في بعض نقوده، كمخالفة ابن بلقين له في سياسة جلب البربر التي انتهجها الأندلسيون والحاجب المنصور بن أبي عامر، فأثنى عليها وباركها، بل جعلها من أوكد الأسباب في الحفاظ على بلاد الأندلس، ودرء الحملات النصرانية عليها، وهنا نلمح مدى أهمية الفروق الاجتماعية للتاريخيين الأندلسيين في التدوين التأريخي، والنقد للحوادث، واستجلاء غاياتها، وآثارها المتعلقة بمجتمعهم.

ووجدناه أيضا منتقدا للأحوال العامة متشائما منها، ويعبر عن ذلك في بعض تعاليقه لما يورده من الأخبار، كقوله في خبر إرادة عمر بن عبد العزيز إجلاء المسلمين من بلاد الأندلس:" وكان من

رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبعدهم عن أهل كلمتهم، قال: وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار، إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته"[41].

و مع قلة أوجه النقد للحوادث عنده، وجدناه قليل النقد لبعض الأخبار التي مال إلى اجتلابها في مقتبسه، مما شابها الإغراب الأسطوري، أو ما اندرج تحت الروايات الشعبية ذات الصفة الخيالية[42]، والملاحظ أن هذه الروايات الأسطورية والشعبية تكثر في التراث التاريخي الأندلسي في المراحل المتقدمة من تاريخ العدوة الأندلسية، وخاصة في أخبار الفتح، وقد حملت المادة التاريخية الحيانية في المقتبس في أجزائها الأولى حول الفتح أكثر هذه المادة، كما لا نشك أنه لم يتعرض لها بالنقد أو النظر.

ولنا من هذا الضرب من الأخبار خبرين مميزين، الأول في خبر قتلى بلاط الشهداء (114و/ 732 م)، الذي قال فيه بعد إيراده:" فيقال: إن الآذان يسمع بذلك الموضح إلى الآن"[43]، وبيِّنٌ أسطورية هذا الخبر، فإننا وجدنا مواضع جليلة كغزوتي بدر وأحد، وغيرهما لايسمع فيها مثل ذلك، والثاني خبر اللواء الأموي بالأندلس الذي أرخ له ابن حيان، وذكر خبر ضياع بقاياه وحزن الأمير محمد بن عبد الرحمن عليه، قال في الخبر:" وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام، وكانوا يرون أنه جرت بسبب اللواء، لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحته، على ما اقتضته حكمة الله تعالى التي لا تتوصل إليها الأفكار"[44]، إن هذه الرواية لتذكرنا بخبر تابوت بني اسرائيل الذي كانت به تنصر في حروبها. ومثله أيضا خبر قول الجني للشعر زمن حروب العرب والمولدين بالأندلس[45]، والذي يذكرنا بخبر الجني وقوله الشعر في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ومثله خبر تعليم الجن الغناء لزرياب[46]، وخبر بلوغ نبأ النبي صلى الله عليه وسلم لملك القوط، وذكر قومسه بوشوك تغلبه على بلاد الأندلس فيما عنده من علم[47]... وأضرب هذا كثيرة تبين أهمية هذا النوع من الأخبار في المادة التاريخية الأندلسية عموما، والحيانية على وجه الخصوص.

كما وجدنا أبا مروان شديد الميل إلى إيراد أخبار الحدثان[48] والتنبؤات على أنها كالمسلمات، لا يلقي عليها نظر الناقد، ولا فكر الناظر، وتحظى عنده بأهمية ملحوظة قد أورد منها الكثير لا في

مقتبسه فحسب بل أيضا في تاريخه المتين، ولنا من أمثلتها الشيء الكثير، فمما جاء منه في المقتبس خبر تنبأ الشاعر عبد الله بن الشمر بمدة دولة الأموية بالأندلس في قوله:

يَا سَائِلِي عَن مَدَى مُلاَكِ قُرْطُبَةَ ... عَنْهُم بِذَاكَ لَهُم عِلْمٌ وآثَارُ

إذا أُمِيرَ عَلَيْهِمْ ستةَ زُحَلٍ ... لَم يَبقَ مِنْهُمْ بِأَرْضِ الغَرْبِ دَيَّارُ

وَآيَةُ القَوْمِ فِي تَغْيِيرِ مُلْكِهِمُ ... إِذَا عَتَوْا وطَغَوْا فِي الحُكْمِ أَوْجَارُوا

قَحْطٌ يَعُمُّ بِلاَدَ الغَرْبِ قَاطِبَةً ... حَتَى تَوَدَعَ منهَا الأَرْضُ أمطارُ[49]

ومثله في أخبار الحدثان خبر الأمير عبد الرحمن الداخل وإعلام عمه مسلمة بن عبد الملك المرواني بملكه بلاد الأندلس وتجديده ملك بني أمية[50]، وكذا خبر اليهودي الحدثاني صاحب عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والي افريقية المتحدث بتغلب القرشي المرواني ذي الضفيرتين على الأندلس والمورثها لعقبه[51].

ونحن نجد هذا النوع من الأخبار ذات الطابع الحدثاني قد كثر إيرادها من التاريخيين الأندلسيين، عبر كل مراحل التدوين التاريخي، ابتداء بعبد الملك بن حبيب الذي منحها جانبا مهما من تاريخه، وقلده في ذلك جمهرة التاريخيين بعده[52]؛ وقد علل بعض الباحثين هذا الاهتمام بالجانب الأسطوري والحدثاني في تراث ابن حيان بأنه طبيعي في عصره، وأن" له دلالة صادقة على عقلية البيئة ووجدانها، وموقفها من الظواهر والأحداث، وتعبيرها عن هموم الجماعة ومواجدها وأمانيها"[53]. لكن ومع هذا يبقى هذا الجانب عنصرا هاما افتقده ابن حيان في باب النقد التاريخي، ولو أنه أغفل كتابه من هذه الروايات المستغربة والمستطرفة لكان أحرى به كمؤرخ ينقب عن خيار الأخبار لا بعيدها عن المعقول المسلم، أو كان يلقي عليها شيئا من نصاعة ذهنه، وبراعة فهمه فيجلي عنها بعض ما إغتمرها من خيال ممجد.

وعلى أية حال، قد بلغ ابن حيان في جانب النقد التاريخي في مقتبسه على قلة تدخلاته في الأحداث والأخبار التي يوردها مبلغا حسنا يجعله في مصاف المجودين من التاريخين، ولعله ارتقى به في بعض الأحيان إلى مصاف المؤرخين المحققين، وهو دون شك لم يكن في أسوأ أحواله من التاريخيين أهل السرد للرواية دون تمحيصها، أو كما يسميهم هو نفسه "أصحاب الخبر".

مراجع البحث وإحالاته

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق ب.شلميتا وف.كورينطي وم.صبح (ج4)، المعهد المصري الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979م.، ج4 ص 38.

(2) نفسه، ج4 ص 39.

(3) نفسه، ج4 ص 278.

(4) نفسه، ج4 ص 321.

(5) نفسه، ج 4 ص 445.

(6) ابن حيان، كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي (ج2)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1393ه 1973م ج2 ص 277.

(7) نفسه، ج4 ص 9.

(8) نفسه، ج2 ص 119.

(9) ابن حيان، المصدر السابق، ج2 ص 201.

(10) نفسه، ج2 ص 23.

(11) نفسه، ج2 ص 290.

(12) ابن حيان، المصدر السابق، ج2ص150.

(13) ابن حيان، المصدر السابق، ج2ص95.

(14) نفسه، ج2ص59.

(15) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت542ه/ 1148م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2000م، ج1ص 138 – 139.

(16) ينظر نقده التطبيقي المميز للأخبار المتنقصة للأموية المشرقية: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1382ه 1962م، ص 79 – 80.

(17) ينظر في هذا باب الطعن والذم عند ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ضبط عبد الرحمن محمد عثمان، المطبعة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، 1388-1968، ج 2 ص 186.

(18) ينظر باب الذم الذي خصصه للأمير عبد الله: ابن حيان، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق ملشور م. أنطونية (ج3)، طبعة بولس كتنز الكتبي، باريس 1937، ج3 ص 39.

(19) نفسه، ج4 ص 38.

(20) نفسه، ج4 ص 39.

(21) ابن حيان، السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق محمود علي مكي (ج1)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2001م، ج1 ص 119.

(22) ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (ج5)، دار الثقافة، بيروت، 1965م، ج5 ص 193.

(23) ابن بسام، المصدر السابق، ج4 ص 7؛ المقري، أبو العباس أحمد بن محمد القرشي التلمساني (ت1041ه/ 1632م)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، 1968، ج3 ص 85.

(24) ابن حيان، المصدر السابق، ج2 ص 166.

(25) نفسه، ج4 ص 139.

(26) عبد القادر زمامة: "ابن حيان وأهل العدوة"، المناهل، عدد خاص بندوة ابن حيان، ص 437.

(27) ابن حيان، المصدر السابق، ج4 ص 299-300.

(28) ابن عذاري المراكشي(كان حيا سنة 712ه/ 1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983م، ج2ص21.

(29) عبد الهادي التازي: " العلاقات المغربية الأندلسية من خلال "المقتبس"لابن حيان"، دراسات تاريخية، العددان25- 26، كانون الثاني-أيار1984، ص 429.

(30) Boch Vila, Jacinto: ''El Elemento Humamo Norteafricano en la historia de la espana muslmana'', in Cuadernos de la biblioteca espanola de tetuan, n° 2, Nov 1964, p. 33-35.

(31) بوباية عبد القادر، البربرفي الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري(الحدي عشر الميلادي)300- 422ه/ 912- 1031م، رسالة دكتوراه دولة، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، إشراف غازي جاسم الشمري، السنة الجامعية 1422- 1423ه/ 2001- 2002م، ص258.

(32) Levi provençal،e.، Histoire de l'Espagne musulmane; e.d.,g-p.maisonneuve, ed. e-j, brill,leiden,1953, p.74.

(33) ابن حيان، المصدر السابق، ج1 ص 169.

(34) نفسه، ج4ص373.

(35) ابن حيان، المصدر السابق، ج4 ص 20.

(36) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الفارسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخارجي، دون تاريخ، ج4 ص 67، 151.

(37) مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 111.

(38) ابن حيان، المصدر السابق، ج1 ص 121.

(39) نفسه، ج5 ص 189.

(40) ابن بسام، المصدر السابق، ج4 ص 59-60، 61-62.

(41) المقري، المصدر السابق، ج3 ص15.

(42) ذهب خوليان ريبيرا إلى أن كتب التاريخ الأندلسي قد تضمنت حشدا من القصص والأساطير، بعضها يعود إلى أصول مشرقية، وبعضها ذي أصول اسبانية مسيحية، ورجح أن هذه الأخيرة كانت متداولة على ألسن الناس باللغة الرومانثية وأن الأندلسيين أدرجوها بالعربية في أخبارهم وأشعارهم (أحمد مختار العبادي:" التاثير المتبادل في الرواية التاريخية العربية الإسبانية"، في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، عدد 24، سنة 1987-1990م ص 35).

(43) المقري، المصدر السابق، ج3 ص 15.

(44) ابن حيان، المصدر السابق، ج3 ص 57.

(45) نفسه، ج3 ص 63.

(46) نفسه، ج1 ص 316.

(47) نفسه، ج4 ص 275.

(48) علم الحدثان علم ينظر في التنبآت بظهور الملوك وذكر لآماد الدول، وبقائها وعدد ملوكها وأسمائهم وحروبها وملاحمها وفتنها، وكان رجاله كهان وعرافون ومنجمون وعرف في الإسلام من الأحاديث النبوية لما يستقبل من الزمان، ومثلها أقوال الصحابة والتابعين و"الأولياء". وقد ولع به الملوك ولهذا انصرفت العناية إليه بشدة، وأشهر رجال هذا العلم في الإسلام كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وبالأندلس الحكم المستنصر، وفرقد بن عبد الله الحرشي، ومحمد بن عبد السلام التدميري (ابن خلدون، المقدمة، ص 330، 439؛ المقري، نفح الطيب، ج3 ص 97؛ ابن الفرضي، المصدر السابق ص 97؛ ابن بشكوال، المصدرالسابق، ص 387).

(49) ابن حيان، المصدر السابق، ج1 ص 395.

(50) المقري، المصدر السابق، ج32 ص 27.

(51) نفسه، ج3 ص 28-29.

ينظر في مثل هذا: ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب السلمى، كتاب التاريخ، تحشية سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420-1999م، ص 137؛ مجهول، اخبار مجموعة، ص 125، 129-140؛ ابن

عذاري، المصدر السابق، ج2 ص259، 257، 22، 18، 17؛ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني(ت776ه/ 1374م)، تاريخ إسبانيا الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، آذار 1956م، ص129؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج4 ص 44؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج1 ص 270.